الشعر بين أبي بكر وعائشة رضي الله عنهما

ليلى محمد عبدالرحمن الدخيل

قسم اللغة العربية وآدابها، كلية الآداب، جامعة الأميرة نورة بنت عبدالرحمن
الرياض، المملكة العربية السعودية

الملخص

هذان العلمان من أقرب الناس للرسول ﷺ وأشهرهم عند العامة والخاصة. وقد اشتهرا بعلوم الدين، ولكنهما لم يتوقفا عندها؛ لذا يلقي هذا البحث الضوء على جانب مغفل من علمهما، وهو الشعر.

تلقت عائشة -رضي الله عنها- الشعر من والدها؛ لذا كان من المتوقع أن نرى تقاربًا في ثقافتهما الشعرية وأسلوب توظيفهما للشعر؛ حيث تمثل كلاهما بالشعر فيما يواجههما من مواقف، حتى في أعظم الساعات شدة كالمرض والموت. وتأثرت توجهاتهما بالشعر؛ حيث دفعهما لاتخاذ بعض القرارات أحيانًا، كما كانا يعلقان على ما يقال أمامهما من أبيات. ومما يجمعهما معًا استنشاد الرسول ﷺ لهما الشعر. ولهما طائفة من الملاحظات النقدية، التي لا تأتي إلا من التأمل في الشعر والتفكر في معانيه ومبانيه.

ومما انفرد به أبو بكر عن عائشة في علاقتهما بالشعر ما قيل عن نظمه للشعر وما دار حول هذا الأمر من خلاف. والموضوع الذي لفت الأنظار في عائشة ضخامة محفوظها من الشعر؛ إذ نصت على شعراء بعينهم تحفظ دواوينهم كاملة، علاوة على شعراء تحفظ كثيرًا من شعرهم.

الكلمات المفتاحية: حاتم الطائي، حسان بن ثابت، زهير بن أبي سلمى، طفيل الغنوي، لبيد بن ربيعة.

المقدمة

هذان العلمان من أعلام الإسلام هما أقرب الناس إلى رسول الله ﷺ لا ينازعهما في تلك المكانة منازع، وقد تواترت الأحاديث والآثار التي تدل على مكانتهما عنده ﷺ. ومما يجمعهما في حديث واحد ما ورد في صحيح البخاري مما حدث به عمرو بن العاص رضي الله عنه أن النبي ﷺ بعثني على جيش ذات السلاسل فأتيته فقلت: «أي الناس أحب إليك؟ قال: عائشة، قلت من الرجال؟ قال: أبوها»[1].

وسيرة هذين الصحابيين الجليلين غنية عن التعريف ولهما من المآثر ما لا ينكره مسلم، وهذا البحث سيقف عند جزء واحد من سيرتهما العطرة ألا وهو علاقتهما بالشعر.

في ذلك العصر وجدت مجموعة من العلوم متصل بعضها ببعض لا يتم أحدها دون الآخر، وهي علم الشعر وعلم الأنساب وأيام العرب. وهذه العلوم أشبه بالدائرة لا يعرف أين طرفاها، وكل واحد منها يخدم الآخر، ولا يحدث التفوق في أحدها بمعزل عن العلمين الآخرين. وفي تلك العلوم متصلة برع أبو بكر رضي الله عنه.

وفي ذلك الوقت الذي ندر فيه إمكانية تعلم المرأة أي نوع من المعارف العامة كانت عائشة -رضي الله عنها- تجد معلما فذا شُهد له بالعلم يتولى تعليمها ألا وهو والدها أبو بكر رضي الله عنه ، وأين تعليم الوالد الحريص وتثقيفه من تعليم أي معلم؟! وقد أجمعت المصادر على أن والدها هو مصدر علمها الأول بالشعر كما ورد في مسند أحمد «كان عروة يقول لعائشة: لا أعجب من فهمك أقول: زوجة رسول الله ﷺ وبنت أبي بكر، ولا أعجب من علمك بالشعر وأيام الناس أقول: ابنة أبي بكر وكان أعلم الناس أو من أعلم الناس ولكن أعجب من علمك بالطب..»[2]. وفي رواية عن عروة بن الزبير قال: «قلت لعائشة: إني لأتفكر في أمرك فأعجب، أجدك من أفقه الناس فقلت: ما يمنعها وأبوها علامة قريش! ولكن إنما أعجب أن وجدتك عالمة بالطب فمن أين؟»[3].

وهذه الأقوال فيها شهادة على تفوق أبي بكر في علم الشعر والأنساب والأيام فهو من أعلم الناس أو علامة قريش وفيها دليل على أنه مصدر معلومات ابنته عائشة رضي الله عنها.

وكان أبو بكر نعم المعلم، إذ تفوقت ابنته في تلك العلوم، وتحدث عنها العلماء بإعجاب شديد، فعروة بن الزبير يقول: «لقد صحبت عائشة فما رأيت أحدا قط كان أعلم بآية أنزلت ولا بفريضة

(1) البخاري، الجامع الصحيح المعروف باسم «صحيح البخاري»، 5/ 6.

(2) ابن حنبل، المسند، 6/ 67.

(3) الزركشي، الإجابة لإيراد ما استدركته عائشة على الصحابة، ص 49.

ولا سنة ولا شعر ولا أروى له.. منها»[1]. وقال: «ما رأيت أحدا أعلم بفقه ولا بطب ولا بشعر من عائشة»[2]. وردد نحوا من هذا القول الأخير ابن عبدالبر فقال: «كانت وحيدة عصرها في ثلاثة علوم؛ علم الفقه وعلم الطب وعلم الشعر»[3].

وأبو بكر لا تفيد منه ابنته فحسب، بل إن فيض علمه النافع يشمل غيرها، فها هو ذا رسول الله ﷺ يرسل إليه حسان بن ثابت ليعلمه أنساب القوم وما يمس رسول الله ﷺ من ذلك النسب وما لا يمسه، حتى استطاع حسان بناء على توجيهات أبي بكر أن يسل رسول الله ﷺ كما تسل الشعرة من العجين[4]؛ حتى لقد اصطبغ شعر حسان بصبغة بكرية واضحة جعلت قريش لما وصلها شعر حسان وهي لا تعلم من قائله تقول: «لقد قال أبو بكر الشعر بعدنا»[5]، ولما علموا أن قائله حسان بن ثابت وليس أبا بكر الصديق قالوا: «إن هذا الشتم ما غاب عن ابن أبي قحافة»[6]، فهذا دليل على حرصه الشديد على إفادة غيره بكل ما يحمل من علم حتى أثر في شعرهم فكيف به مع ابنته عائشة؟!

فأبو بكر الصديق أعلم الناس أو علامة قريش بأيام العرب وأنسابها وأشعارها، تعلم ذلك كله في الجاهلية قبل أن يشغله الإسلام وهموم الدعوة مع صاحبه صاحب الرسالة محمد ﷺ، ثم أفرغ فيض علمه على ابنته عائشة -رضي الله عنها- فتلقته بفؤاد ذكي وذهن متوقد وروح ميالة للعلم.

ورغم انشغال هذين الصحابيين بالدين الجديد وما تحملاه في سبيله، ومع استغراقهما في الصلاة والصيام والجهاد وحفظ القرآن فإن هذا كله لم ينسهما الشعر، فإذا هو يجري على لسانيهما حتى آخر حياتهما، والصديق يستمر في توجيه عائشة فيما تقوله من شعر حتى آخر أنفاسه.

ومن خلال تتبع علاقة هذين الصحابيين بالشعر نجد بينهما مواقف مشتركة فيه ومواقف مختلفة، وتغلب المواقف المشتركة عليهما وبها نبدأ الحديث.

(1) الذهبي، سير أعلام النبلاء، 2/ 83.
(2) العسقلاني، الإصابة في تمييز الصحابة، 13/ 42.
(3) الزركشي، الإجابة، ص 49.
(4) انظر: النووي، صحيح مسلم بشرح النووي، 16/ 49.
(5) الأصفهاني، الأغاني، 4/ 144.
(6) الأصفهاني، الأغاني، 4/ 144.

التمثل بالشعر

تمثل أبي بكر بالشعر:

وأول هذه المواقف المشتركة بينهما هو تمثلهما بالشعر على ما يواجههما من مواقف، وقد يكون أقدم هذه المواقف التي وصلتنا -فيما اطلعت عليه من مصادر- هي الحادثة التي روتها عائشة -رضي الله عنها- قالت: «لما قدم رسول الله ﷺ المدينة وُعِكَ أبو بكر وبلال -قالت- فدخلت عليهما فقلت: يا أبت كيف تجدك؟ ويا بلال كيف تجدك؟ قالت: فكان أبو بكر إذا أخذته الحمى يقول[7]:

كُلُّ امرئٍ مُصبَّحٌ في أَهلِهِ
والموتُ أدنَى من شِراكِ نَعْلِهِ

وكان بلال إذا أقلع عنه الحمى يرفع عقيرته يقول[8]:

أَلاَ لَيْتَ شِعْرِي هَلْ أَبِيتَنَّ لَيْلَة
بِوَادٍ وَحَوْلِي إِذْخِرٌ وَجَلِيلُ
وَهَلْ أَرِدَنْ يَوْمًا مِيَاهَ مَجَنَّةٍ
وَهَلْ يَبْدُوَنْ لِي شَامَةٌ وَطَفِيلُ

قالت عائشة: فجئت رسول الله ﷺ فأخبرته فقال: »اللهم حبب إلينا المدينة كحبنا مكة أو أشد، وصححها وبارك لنا في صاعها ومدها، وانقل حماها فاجعلها بالجحفة»[9]. فأبو بكر لا يمنعه وقوعه تحت تأثير وطأة الحمى وما يعانيه من آثارها من تصوير حاله شعرًا، فقد يكون أبلغ في الجواب وأكثر تعبيرًا عن الحال. وإن كان في هذه القصة شاهد آخر وهو إجابتهما عائشة -رضي الله عنها- شعرًا، فهل لمسا من عائشة -رضي الله عنها- محبة الشعر وتذوقه، وأنسا فيها القدرة على فهم معانيه مما شجعهما على تصوير معاناتهما لها شعرًا؟! وفعلاً فقد وعت عائشة هذا الشعر ونقلت الخبر للرسول ﷺ بأبيات الشعر التي سمعتها، وتأثر الرسول ﷺ بما أصباهما حتى قال دعاءه المشهور في المدينة.

وأبو بكر يستمر بعد ذلك في اتخاذ الشعر وسيلة للتعبير عما يجول بخاطره ويعتمل في نفسه؛ ومن حوادث استشهاد أبي بكر بالشعر التي تستحق من الباحث وقفة أنه «لما ظهر رسول الله ﷺ على أموال بني النضير وكانوا أول من أجلي.. فكانت

(7) الرجز لحكيم النهشلي. انظر: ابن عبد ربه، العقد الفريد، 6/ 40.
(8) البيت لبلال ﷺ. انظر: ابن منظور، لسان العرب، 11/ 120.
(9) البخاري، الجامع الصحيح، 5/ 84.

مما لم يوجف المسلمون عليه بخيل ولا ركاب، فقال رسول الله ﷺ للأنصار: ليست لإخوانكم من المهاجرين أموال، فإن شئتم قسمت هذه وأموالكم بينكم وبينهم جميعا، وإن شئتم أمسكتم أموالكم وقسمت هذه فيهم خاصة. فقالوا: بل اقسم هذه فيهم واقسم لهم من أموالنا ما شئت.. فقال أبو بكر: جزاكم الله يا معشر الأنصار خيرا فوالله ما مثلنا ومثلكم إلا كما قال الغنوي[1]:

جَزَى الله عنَّا جعفرًا حين أَزْلقتْ
بنا نعلُنا في الواطئين فَزلَّتِ
أبوا أن يَمَلّونا ولو أنَّ أُمَّنا
تُلاقي الذي يَلقَون مِنَّا لمَلَّتِ
فَذُو المالِ موفورٌ وكلُّ مُعَصَّب
إلى حُجُرَاتٍ أدْفأت وأظلَّت»[2]

هذا الكرم غير المتناهي والمحبة الخالصة لله سبحانه وتعالى من الأنصار للمهاجرين أثرت في نفوس المهاجرين جميعا، فوقف كبير المهاجرين أبو بكر الصديق يعبر عما يجول في خاطرهم وما تفيض به نفوسهم من مشاعر فوجد في شعر الغنوي أدق تصوير لحال المهاجرين والأنصار؛ فالأم تمل إذا زاد الأمر عن حده وهم لا يملون.

ويتولى أبو بكر الخلافة، ويستمر في محبة الأنصار، لا ينسى ما كان لهم من يد في خدمة الإسلام، ولا هم يتغيرون عما كانوا عليه من خلق كريم مع المهاجرين، فـ «لما تشاغل بأهل الردة استبطأته الأنصار فكلموه، فقال: أما إذ كلفتموني أخلاق رسول الله ﷺ فوالله ما ذاك عندي ولا عند أحد، ولكني والله ما أوتى من مودة لكم ولا حسن رأي فيكم، وكيف لا نحبكم؟ فوالله ما وجدت لنا ولكم إلا ما قال طفيل الغنوي لبني جعفر[3]:

جَزَى الله عنَّا جعفرًا حين أَزْلقتْ
بنا نعلُنا في الواطئين فَزلَّتِ
أبوا أن يَمَلّونا ولو أنَّ أُمَّنا
تُلاقي الذي يَلقَون مِنَّا لمَلَّتِ
فَذُو المالِ موفورٌ وكلُّ مُعَصَّب
إلى حُجُرَاتٍ أدْفأت وأظلَّت»[4]

ويعيد أبو بكر الكرة ويستشهد بشعر طفيل ذاته في موقف ثالث جاعلا إياه مثلا لحال المهاجرين مع الأنصار إذ «وصل إلى أبي بكر مال من البحرين فساوى فيه بين الناس، فغضبت الأنصار، وقالوا له: فضَّلنا! فقال أبو بكر: صدقتم، إن أردتم أن أفضلكم صار ما عملتموه للدنيا، وإن صبرتم كان ذلك لله عز وجل، فقالوا: والله ما عملنا إلا لله تعالى، وانصرفوا. فرقي أبو بكر المنبر، فحمد الله وأثنى عليه، وصلى على النبي ﷺ، ثم قال: يا معشر الأنصار، إن شئتم أن تقولوا إنا آويناكم في ظلالنا، وشاطرناكم في أموالنا، ونصرناكم بأنفسنا، لقلتم، وإن شئتم من الفضل ما لا يحصيه العدد وإن طال به الأمد، فنحن وأنتم كما قال طفيل الغنوي[5]:

جَزَى الله عنَّا جعفرًا حين أَزْلقتْ
بنا نعلُنا في الواطئين فَزلَّتِ
أبوا أن يَمَلّونا ولو أنَّ أُمَّنا
تُلاقي الذي يَلقَون مِنَّا لمَلَّتِ
فَذُو المالِ موفورٌ وكلُّ مُعَصَّب
إلى حُجُرَاتٍ أدْفأت وأظلَّت»[6]

فهاهنا أبو بكر ﷺ مع تطاول الأيام واختلاف الأوضاع لا يحيد عن هذا المثال من الشعر في تصوير حال المهاجرين مع الأنصار، يرى فيه تعبيرًا دقيقًا لحالتيهما، لا يوازيه مثال آخر من ميراث الشعر العربي، كيف لا وقد جعلهم أبر من الأم على أبنائها إذا زادت الأمور عن حدها؟

ولا عجب من اختيار أبي بكر ﷺ لهذه الأبيات الثلاثة شاهدا على حاله مع الأنصار؛ إذ هي مع مطابقتها للحال، تتميز بجمال الصياغة ودقة الأسلوب وغرابة البناء، إذ نجد فيها حذفًا مقصودًا في عدة مواضع؛ منها قوله: لملت، أدفأت، أظلت. والأصل فيها: لملتنا، أدفأتنا، أظلتنا. وهو من بارع الحذف ونادره كما جاء عند عبدالقاهر الجرجاني[7]. وعدها ابن المظفر الحاتمي ضمن أخلب أبيات قالتها العرب[8].

وقد تكون هذه الروايات الثلاث ترجع إلى رواية واحدة زيد فيها وأنقص، على حسب الروايات، ولكن من المؤكد أن أبا بكر صور حال

(1) طفيل، ديوان طفيل الغنوي شرح الأصمعي، ص 130-131. مع تغيير في ترتيب الأبيات.
(2) البلاذري، فتوح البلدان، 1/ 21.
(3) طفيل، ديوان طفيل الغنوي، ص 130-131.
(4) ثعلب، مجالس ثعلب، 2/ 393.
(5) طفيل، ديوان طفيل الغنوي، ص 98.
(6) الحصري، زهر الآداب، 1/ 33.
(7) انظر: الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص 158.
(8) انظر: الحاتمي، حلية المحاضرة، 1/ 383.

المهاجرين والأنصار بأبيات طفيل الغنوي تلك.

وليست هذه فحسب الأبيات التي استشهد بها أبو بكر ﷺ ولاقت استحسان النقاد بعد ذلك، إذ لما أتى أبو بكر ﷺ كتاب خالد بن الوليد بالفتح في هزيمة الأعاجم قال الصديق متمثلا[1]:

تَمَنَّانا لِيَلْقَانَا بِقَوْمٍ
تَخَالُ بياضَ لأْمِهُمُ السَّرَابَا
فقدْ لاقَيْتَنَا فرأيتَ حَرْبًا
عَوَانًا تمنعُ الشيخَ الشَّرَابَا

وهذان البيتان من الأبيات المختارة التي نص عبدالقاهر الجرجاني على جودتها وأوضح أن المرء يحتاج إلى قراءة كثير من القصائد والبحث الدقيق في دواوين الشعر حتى يصل لمثل هذه الأبيات[2].

وكان الصديق يكثر من التمثل ببعض الأبيات مثل قول الشاعر[3]:

لا تَزالُ تَنْعى حَبيبًا حتى تكونَه
وَقَدْ يرجو الفتى الرّجاء يموتُ دونه[4]

واستمرار مسلسل الموت يدفع الإنسان للتمثل بمثل هذا الشعر، مع ما فيه من تذكير بأن مصير الإنسان إلى الموت، والرسول ﷺ قال: «أكثروا ذكر هاذم اللذات»[5].

وفي أشد اللحظات تأزمًا لا يغيب الشعر والاستشهاد به عن ساحة أبي بكر، فها هو ذا ﷺ يعاني سكرات الموت ويتمثل بقول الشاعر[6]:

وكلُّ ذي إبلٍ موروثُ
وكلُّ ذي سَلَبٍ مسلوبُ
وكلُّ ذي غَيبَةٍ يَؤُوبُ
وغَائبُ الموتِ لا يؤوبُ[7]

فأبو بكر وجد ذلك الشعر يصف حال الإنسان أدق وصف.

هذه بعض مواقف أبي بكر مع الشعر متمثلا به معبرًا من خلاله عما يجوس في نفسه.

تمثل عائشة بالشعر:

وإذا انتقلنا إلى عائشة -رضي الله عنها- نجدها مشهورة بهذا التمثل أيما شهرة، أسند الزبير بن بكار عن أبي الزناد، قال: «ما رأيت أروى لشعر من عروة فقيل له: ما أرواك! فقال: ما روايتي في رواية عائشة؟! ما كان ينزل بها شيء إلا أنشدت فيه شعرًا»[8]، فعائشة يشهد لها بكثرة الاستشهاد عالم تتعجب من علمه العلماء، فيستصغر علمه عند علم عائشة، وشهادة عالم كبير بألف شهادة ممن دونه. وهنا يعطينا عروة السبب الأول لكثرة تمثل عائشة بالشعر وهو كثرة محفوظها من الشعر؛ حيث قال: «ما روايتي في رواية عائشة؟!» وهذه الرواية الواسعة للشعر مكنت عائشة أن تجد لكل حادثة تمر بها ما يناسبها من أبيات الشعر، وأضيف لهذا سببًا آخر، وهو فهم عائشة للشعر وتعلمها إياه مصاحبًا للأحداث التي قيلت فيه والمعاني التي تخللته، فقد تلقفت الشعر من عند الصديق علامة قريش بأيام العرب وأنسابها وأشعارها.

وعائشة -رضي الله عنها- كوالدها لا ترى في الشعر ترفًا فنيًّا أو استظهارًا للثقافة يبعد بالمرء عن موقف الموت واحترامه، ولا تخجل من الاستشهاد به في أشد الحالات كربًا وضيقًا، فهو يسري في عروقها مع دمها، ويسيل على لسانها مع ريقها، وتجري به خواطرها مع أفكارها. فبعد وفاة الرسول ﷺ أحست عائشة أن الركن المنيع الذي تأوي إليه ويحميها قد تركها، فهي وحيدة من بعده، فتقول:

قد كنتَ لي جبلاً أَلُوذُ بظلِّهِ
فتركتني أضْحَى بأجْرَدَ ضاحِ
قد كنتُ ذاتَ حَمِيَّةٍ ما عشتَ
ليأمشي البَرازَ وكنتَ أنتَ جناحي
فاليومَ أخضعُ للذليلِ وأتَّقِي
منهُ وأدفعُ ظالمي بالرَّاحِ
وإذا دعتْ قُمْرِيَّةٌ شَجَنًا لها
يومًا على فَنَنٍ دعوتُ صَبَاحِ
وأغضُّ من بَصَري وأعلمُ أنه
قد بانَ حَدُّ فَوَارِسي وَرِماحي[9]

فهي تجد في الأبيات تعبيرًا عما يعتمل في نفسها من هواجس ومن مخاوف بعد الأمن الذي كانت

(1) الشعر للصحابي حنظلة بن زياد بن حنظلة. انظر: الكلاعي، الاكتفاء في مغازي رسول الله والثلاثة الخلفاء، 4/ 68.
(2) انظر: الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص 89.
(3) وصف هذا الكلام بأنه شعر مع صعوبة تخريجه على أي وزن من الأوزان الشعرية المعروفة، ولم أهتد إلى قائله فيما اطلعت عليه من مصادر.
(4) انظر: ابن سعد، الطبقات الكبرى، 3/ 198. ابن عساكر، تاريخ دمشق، 30/ 423.
(5) ابن حنبل، المسند، 13/ 301.
(6) ابن الأبرص، الديوان، ص 26.
(7) انظر: الطبري، تاريخ الأمم والملوك، 3/ 423.
(8) العسقلاني، الإصابة 13/ 42.
(9) انظر: القالي، الأمالي، 2/ 1-2.

تستشعره في حياة الرسول ﷺ.

ولما مرض الصديق وجلست عائشة عند رأسه تواسيه وتمرضه، إذا فيضٌ من الشعر ينهال على لسانها، تعبر به عما يجول بخاطرها من هواجس، تأبى التعبير بغيره كأنما هو جزء من حديثها، وتعلم أن والدها يتقبله، ولا يراه نوعًا من الترف لا يعبر عن اللحظات المؤلمة في حياة الإنسان، وإن كان القرآن أفضل منه كما نبهها الصديق رضي الله عنه.

ففي أثناء معاناة الصديق، تأملت عائشة سيرة ذلك الرجل المسجى أمامها، فرأته تاريخًا مشرفًا وتضحية لا تنكر، فتمثلت[1]:

وَأبيضَ يُستَسقى الغمامُ بوَجهه
رَبيعُ اليتامى عِصْمةٌ للأرامِلِ

فقال أبو بكر رضي الله عنه ذاك والله رسول الله ﷺ[2]. فهو يأبى بوصف يعجبه أن يكون لغير رسول الله ﷺ. ولم تمنعه شدة معاناته من التفكير في معاني البيت الرائعة، ولم ترده عن توجيه فلذة كبده، كأنما يعطيها درسًا في الاستشهاد، وأن يكون المقال فيه مناسبًا للمقام، ولا تلبس أحدًا ثوبًا من الشعر أكبر منه.

ولما رأته يعالج الموت وشعرت باليأس أمامه وألا حيلة لمحتال، قالت[3]:

لعمرُكَ ما يُغْني الثراءُ عَنِ الفَتى
إذا حَشْرَجتْ يومًا وَضَاقَ بها الصَّدرُ

فتنبه أبو بكر لابنته ووجهها لما هو أنسب من الشعر في هذا المقام، فقال: لا تقولي هكذا يا بنية، ولكن قولي: ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ (ق:19). وفي رواية فنظر إليها كالغضبان ثم قال: ليس كذاك يا أم المؤمنين ولكن ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ (ق:19)[4].

ولم تتوقف عائشة عن التمثل بالشعر بل استمرت في وصف حالها مع والدها شعرًا، ومن بين دموعها المراقة قالت[5]:

من لا يزالُ دَمْعُه مُقَنَّعًا فإنَّهُ لا بُدَّ مَرَّةً مَدْفُوقُ[6]

فأفاق أبو بكر وقال: «ليس كذاك أي بنية ولكن ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ (ق:19)»[7].

وتستمر عائشة تتمثل الشعر لوصف حالها وحال أبيها فتقول لما ثقل[8]:

وَكُلُّ ذي إبِلٍ موروثُ وكلُّ ذي سَلَبٍ مسلوبُ

وللمرة الثالثة يردد عليها الصديق ترديد الأب المشفق الحنون موجهًا لها بلطف: ليس كما قال يا بنتاه ولكن كما قال الله ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ (ق:19)[9]. وجاءت أبا بكر سكرة الموت بالحق وانتقل للرفيق الأعلى وآخر ما قاله ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ (يوسف:101).

فأبو بكر والد شفيق ومعلم حريص يوجه فلذة كبده عائشة وهو على فراش الموت بأن لكل مقام مقالا وأن القرآن أفضل بكثير على كل حال وفي حالة الموت بالذات فيكرر بإصرار آيات مناسبة من القرآن وراء كل بيت تستشهد به عائشة رضي الله عنها. وقد يكون التمس في هذه الآيات تثبيتا لعائشة بعد وفاته، وليعطي فلذة كبده درسًا عمليًّا جعل آخر ما نطق لسانه آية من القرآن الكريم.

ومن المواقف اللافتة للنظر في تمثل عائشة ما تمثلت به من شعر لما جاءها خبر وفاة أخيها عبدالرحمن، إذ أنشدت جزءًا من قصيدة لحجية بن المضرب الكندي في أخيه معدان يذكره فيها ويأسى على فراقه، ومطلعها:

لَجَجْنَا ولَجَّتْ هذه في التَّجَنُّبِ
وَلَطَّ القناعُ بيننا في التَّنَقُّبِ[10]

ولما وقفت على قبره تمثلت بقول متمم بن نويرة في أخيه مالك:

(1) البيت لأبي طالب عم الرسول ﷺ. انظر: البخاري، الجامع الصحيح، 2/ 33-34.
(2) انظر: ابن حنبل، المسند، 1/ 205-206.
(3) البيت لحاتم الطائي. انظر: الطائي، الديوان «صنعة يحيى ابن مدرك الطائي، ص 260، مع اختلاف بسيط في الرواية.
(4) انظر: ابن سعد، الطبقات الكبرى، 3/ 139، 196.
(5) أسلوب البيت يذكر بمعلقة عبيد بن الأبرص، لكني لا أستطيع الجزم بنسبته إليه؛ لأن البيت ورد غفلا من اسم قائله فيما بين يدي من مصادر.
(6) كذا ورد البيت عند ابن سعد (3/ 197) بهذه الرواية التي اختل فيها عجز البيت عروضيا. وساق الزمخشري الحكاية في «الفائق» (3/ 230) فأورد البيت بروايتين مستقيمتين؛ إحداهما:
مَن لا يزال دَمْعُه مُقَنَّعا لا بُدَّ يوما أَنَّه مُهرَاق
والأخرى:
وَمَنْ لاَ يَزَالُ الدَّمْعُ فيه مُقَنَّعًا فلا بُدَّ يَوْمًا أَنهُ مُهرَاقُ
(7) انظر: ابن سعد، الطبقات الكبرى، 3/ 197.
(8) الشعر لعبيد بن الأبرص، ديوانه، ص 26.
(9) انظر: ابن سعد، الطبقات الكبرى، 3/ 197.
(10) انظر: المرزباني، معجم الشعراء، ص 234.

وَكُنَّا كَنَدْمانيْ جذيمةَ حِقْبَةً
مِنَ الدهرِ حتى قيلَ لن يتصدَّعا
فلما تفرَّقْنَا كأني ومالكًا
لطولِ اجتماعٍ لم نبتْ ليلةً معا[1]

فهنا عائشة -رضي الله عنها- وهي تبكي أخاها عبدالرحمن لا تكتفي في اختيار شواهدها بمناسبة الأبيات للمقام مع جمال الألفاظ وحسن الأسلوب، بل تتعدى ذلك إلى اتفاق المناسبة فترثيه بأبيات من قصائد قالها شعراء في بكاء إخوتهم فكأن تعاطفا خفيا ينمو في جوفها لكل من فقد أخاه، فتستعيد من الشعر ما قيل في الإخوة والبكاء عليهم لتختار منه.

وعائشة -رضي الله عنها- لا تترك الاستشهاد في مواقف الموت أبدا، فبعد وفاة عثمان بن عفان ﷺ وكثرة الحيرة والخلاف بعد وفاته تمثلت عائشة[2]:

وَلو أنَّ قومي طاوَعتني سَرَاتُهمْ
لأنْقَذْتُهمْ من الحِبالِ[3] أو الخَبْلِ[4]

وحينما جاءها خبر مقتل علي بن أبي طالب ﷺ تمثلت[5]:

وألقتْ عصاهَا واستقرَّ بها النَّوى
كما قَرَّ عينًا بالإيابِ المسافرُ

ثم قالت: من قتله؟ فقيل: رجل من مراد، فتمثلت[6]:

إنْ تكُ ناعيًا فلقدْ نعاهُ
نعيٌ ليسَ في فيه الترابُ

فكأن الشعر والتمثل به يسبق تفكيرها أحيانا فتندم على ما بدر منها، كما حدث معها بعد أن تمثلت بهذا البيت فنبهتها زينب بنت أبي سلمة ربيبة رسول الله ﷺ، فقالت لها عائشة رضي الله عنها: إذا نسيت فذكريني. ثم تمثلت[7]:

ما زالَ إهداءُ القصائدِ بيننا
باسمِ الصديقِ وكثرةَ الألقابِ
حتى تُركت كأنَّ قولك فيهمُ
في كلِّ مجتمعٍ طنينُ ذُبَابِ[8]

ولا تتخلى عائشة عن التمثل بالشعر في أشد المواقف رهبة، فها هي ذي في طريقها للبصرة مسافرة لها لأول مرة لا تدري ما ينتظرها هناك! ومع ذلك لما لاحظت ما في البصرة من خصب ونبت قد لا تكون تعودت عليه في المدينة سارعت للتمثل بقول الشاعر[9]:

دَعي بلادَ جُموع الظُّلم إذ صَلَحت
فيها المياهُ وسيري سيرَ مذعور
تَخَيَّرِي النَّبتَ فارْعي ثَمَّ ظَاهِرَةً
وَبَطْنَ وادٍ من الضِّمَّارِ[10] مَمطُورِ[11]

ولم تتوقف عن التمثل حتى في خضم الحرب، فلما اشتعلت معركة الجمل المشهورة والسيوف تعلو وتهبط والدماء تراق والنفوس تزهق، وجدنا عائشة لا يفارقها الشعر ولا يبعدها رهبة الموقف عن التمثل به، فها هي ذي تقول للأزد: «يآل غسان، حافظوا اليوم جلادكم الذي كنا نسمع به» وتمثلت[12]:

وجالَدَ من غسَّانَ أهلُ حِفَاظِها
وهِنْبٌ وأَوسٌ جالَدَتْ وشَبيبُ

ثم التفتت لبكر بن وائل وقالت لهم: لكم يقول القائل[13]:

وجاءوا إلَينا في الحَديدِ كأنَّهم
مِنَ العِزَّةِ القَعْسَاءِ بكرُ بنُ وائلِ[14]

(1) انظر: ابن بكار، الأخبار الموفقيات، ص 473.
(2) لم أجد هذا البيت -في حدود ما اطلعت عليه- إلا في تاريخ الطبري (5/ 166). على أن شطره الأول ورد صدرا لبيتين آخرين أحدهما لخديج بن العوجاء، وهو:
وَلَوْ أَنَّ قومي طَاوعَتْني سَرَاتَهم
إذن ما لقِينا العارضَ المُتَكَشِّفا
(انظر: ابن هشام، السيرة النبوية، 4/ 120). والآخر:
وَلَوْ أَنَّ قومي طَاوعَتْني سَرَاتَهم
أمرتُهُمُ أمرا يُدِيخُ الأعَادِيا
تمثل به علي بن أبي طالب ﷺ كما جاء في تاريخ الطبري 5/ 159.
(3) الحبال: يريد الأسر. والخبل: الجراحات.
(4) انظر: الطبري، تاريخ الأمم والملوك، 5/ 166.
(5) البيت لمعقر البارقي. انظر: المرزباني، معجم الشعراء، ص 204.
(6) هذا البيت حفظ لنا من خلال استشهاد عائشة به؛ إذ لم أره -فيما أعلم- إلا في سياق هذه الحكاية، وهو غير منسوب إلى قائل.
(7) قائل البيت هو حضرمي بن عامر الأسدي. انظر: الجاحظ، الحيوان، 3/ 315.
(8) انظر: ابن بكار، الأخبار الموفقيات، ص 131. الأصبهاني، مقاتل الطالبيين، ص 11.
(9) تفرد الطبري بإيراده فيما أعلم ولم يعزه.
(10) الضمار، سياق البيت يدل على أنه اسم مكان، لكن ما وجدته في كتب البلدان: «الضمار» بتخفيف الميم لا تشديدها كما هنا. وربما كانت «الضمار» في البيت تحريف «الصمان».
(11) انظر: الطبري، تاريخ الأمم والملوك، 5/ 169.
(12) هذا البيت والذي بعده يردان عادة في سياق تمثل عائشة بهما، لكن المراجع التي اطلعت عليها ضنت بذكر القائل.
(13) انظر: الحاشية رقم 51.
(14) انظر: الطبري، تاريخ الأمم والملوك، 5/ 208.

فقد جاء تمثلها بالشعر منسجمًا مع عادتها في الاستشهاد على كل ما يمر بها من أمور، يضاف إليه هدف آخر وهو تحميس المقاتلين على القتال.

وخارج حدود الموت وما يحمله من لوعة عائشة -رضي الله عنها- لا تتخلى عن الشعر، بل هي تكثر من التمثل ببعض أبياته، ومن أروع الأمثلة التي ضربتها عائشة لجودة الاستشهاد ومناسبته للحال ما ذكرته عائشة -رضي الله عنها- قالت: «كان رسول الله ﷺ يخصف نعله وكنت أغزل، وجعل عرقه يتولد نورًا، قالت: فبهت، قالت: فنظر إلي، فقال: ما لك بهت؟ فقلت: يا رسول الله، نظرت إليك فجعل جبينك يعرق وجعل عرقك يتولد نورًا، فلو رآك أبو كبير الهذلي لعلم أنك أحق بشعره، قال: وما يقول يا عائشة أبو كبير الهذلي؟ فقالت: يقول:

وَمبرَّأٍ من كلِّ غُبَّرِ حِيضَةٍ
وفَسَادِ مُرْضِعَةٍ وداءٍ مُغْيلِ[1]

وإذا نظرتَ إلى أسرَّةِ وجهِه
بَرَقَتْ كَبَرْقِ العَارضِ المتهلِّلِ

قالت: فوضع رسول الله ﷺ ما كان في يده وقام إلي، فقبل ما بين عيني وقال: «جزاك الله يا عائشة خيرًا ما سررت مني كسروري منك»[2].

فهذه الشهادة من أفصح البشر -لا ريب- سرت عائشة أيما سرور، ومع ذلك وصف الرسول ﷺ سروره بأنه أشد من سرورها، ثم إن المتأمل في الموقف والشاهد يجد التناسب التام بين حالة الرسول ﷺ والشعر، مع جودة الانتقاء وخلوه من كل ما يقلل من جماله.

وكما كان الصديق يكثر من التمثل ببعض الأبيات كانت عائشة تفعل ذلك، فهي تسارع للاستشهاد بكل بيت تجد فيه معنى جميلاً وموسيقا عذبة، تطرب لها النفس والأذن؛ مثل قول الشاعر[3]:

إذا ما الدهرُ جَرَّ على أُنَاسٍ
حوادثَه أناخَ بآخرِينا
فقلْ للشَّامتين بنا أفيقُوا
سيلقى الشامتون كما لَقِينا[4]

وهذان البيتان من الحكم الجميلة التي تنطبق معانيها على كل إنسان في فترات مختلفة من حياته.

التأثر بالشعر

تأثر أبي بكر بالشعر:

يتأثر أبو بكر وعائشة بالشعر، بل إن الشعر يدفع أبا بكر لاتخاذ مواقف يحسبه المرء ما كان ليتخذها لو لم يسمع الرأي الآخر شعرًا، مثل موقفه من زواج ابنه عبدالله من عاتكة بنت زيد وكيف أحبها ابنه حبًّا عظيمًا حتى إنه ربما ترك بسببها صلاة الجماعة مما دفع أبا بكر لأن يطلب من ابنه عبدالله طلاقها حفاظا على دينه ومعاشه، فحاول عبدالله إقناع والده بعدم طلاقها إلا إنه أبى فما كان من عبدالله ﷺ إلا طلاقها، فتأثر عبدالله غاية التأثر دون أن يرجع أبو بكر عن رأيه حتى أنشد عبدالله مصورًا حاله وحالها:

فلم أرَ مثلِي طلّق اليومَ مثلها
ولا مِثْلها في غير جرمٍ تطَلّقُ

لها خُلُقٌ جَزْلٌ، ورأيٌ ومَنْصِبٌ
وخَلْقٌ سَويّ في الحياء ومَصْدَقُ

أعاتكُ لا أنْساكِ مَا هبَّتِ الصَّبَا
وما نَاحَ قُمرِيٌّ الحَمامِ المطوَّقُ

أعاتك لا أنساك ما حج راكب
وما لاح نجم في السماء محلق

أعاتكُ، قلبي كلَّ يوم وليلةٍ
إليكِ بما تُخفي النفوسُ مُعَلَّقُ

ولولا اتقاء الله في حق والد
وطاعته ما كان منا تفرق

فبلغ أبا بكر شعره فأمره فراجعها، وكانت عنده حتى استشهد[5].

وكذلك تتأثر عائشة بالشعر أيما تأثر، ويدفعها الشعر لاتخاذ مواقف مناسبة له، ومن أوضح الأمثلة عند عائشة قصتها مع حسان بن ثابت ﷺ بعد حادثة الإفك؛ فعائشة -رضي الله عنها- تعفو عنه ما سبق إليه لسانه من حديث الإفك الذي أرهق عائشة -رضي الله عنها- أيما إرهاق، بل أرهق معها والديها وأهل المدينة أجمع، مما تصوره لنا بالتفصيل كتب الحديث والتفسير والسيرة. وهي لا تعفو عنه فقط بل تكره أن يسب أحد عندها حسان بن ثابت وتدافع عنه وتدخله عليها

(1) غبر: بقية. وفساد مرضعة: لم تحمل عليه فتسقيه الغيل. ومغيل: شديد.

(2) انظر: أبو نعيم، حلية الأولياء، 2/ 46.

(3) البيتان للعلاء بن قرظة خال الفرزدق. انظر: الأصفهاني، الأغاني، 21/ 420.

(4) انظر: ابن عبد ربه، العقد الفريد، 2/ 150.

(5) انظر: المدائني، كتاب المردفات من قريش «ضمن نوادر المخطوطات»، 1/ 61-62.

وتسمع منه أشعاره حتى آخر حياته. فما سبب هذ العفو الذي لم يشبه إلا قليل من اللوم كما سيرد؟ إنه الشعر الذي أحبته عائشة -رضي الله عنها- وتمكنت من أسراره وعلمت ما له من دور كبير في الدفاع عن قضايا الأمة ومهاجمة خصومها ورأت بحسها النقدي شعر حسان بن ثابت يتفوق على ما عداه من سيول الشعر حول الرسول ﷺ، مما يستحق معه أن يحصل العفو لقائله من إساءة بدرت منه في يوم من الأيام. بل تدفع عائشة أن تصد كل مهاجم لحسان جاعلة من شعره سببا للعفو عنه؛ مثل قولها لابن أختها عروة حينما حاول سبه عندها: «لا تسبه فإنه كان ينافح عن رسول الله ﷺ»[1]. أو تقول لجماعة من الصحابة استنكروا عليها إدخال حسان بن ثابت منزلها وسماعها شعره بعد أن كبر سنه: «إنه كان ينافح أو يهاجي عن رسول الله ﷺ»[2]، وذلك بلسانه الذي قذف الرعب في نفوس أعداء الإسلام.

وعائشة -رضي الله عنها- لا تكتفي بهذا القول الجامع، بل تعمد إلى ديوانه الشعري لتختار منه بيتًا تدافع به هي عن حسان بن ثابت، فكما ورد في كتب الحديث كانت عائشة تكره أن يسب عندها حسان، وتقول: إنه الذي قال[3]:

فإنَّ أبي ووالِدَهُ وعِرضي
لعِرضِ محمدٍ منكم وِقَاءُ[4]

فهي تعمد إلى ديوانه الشعري وتختار منه بيتًا، وعملية الاختيار من ديوان كامل عملية نقدية تخضع للذوق الفني، فكأنما عائشة ترى هذا البيت يفوق بقية الأبيات التي قالها حسان في معناه وأنه يحوي من المميزات الفنية والجمالية ما يجعله أهلا للدلالة على ما وراءه من شعر حسان.

بل قد يدفعها الشعر إلى البكاء حتى تظن لا تسكت؛ ففي معركة الجمل الشهيرة كان عمرو بن الأشتر يحمي عائشة -رضي الله عنها- آخذا بخطام جملها لا يدنو منه أحد إلا قتله، فأقبل عليه الحارث بن زهير الأزدي وهو يقول:

يا أُمَّنا يا خيرَ أُمٍّ نَعْلَمُ
أَمَا تَرَيْنَ كَمْ شُجَاعٍ يُكلَمُ
وتُخْتَلَى هامَتُهُ وَالمِعْصَمُ!

(1) البخاري، الجامع الصحيح، 5/ 61.
(2) البخاري، الجامع الصحيح، 5/ 61.
(3) حسان، الديوان، ص 76.
(4) انظر: البخاري، الجامع الصحيح، 5/ 56.

ثم تشابكا بسيفيهما فضرب كل واحد منهما الآخر حتى ماتا، ثم بعد ذلك بمدة بعد استقرار المقام بعائشة في المدينة المنورة جاءها ابن عم للحارث بن زهير الأزدي فسألته لما عرفها بنفسه: أتعرف الذي يقول:

وتُخْتَلَى هامَتُهُ وَالمِعْصَمُ؟

قال لها: نعم، ذاك ابن عمي، فبكت عائشة حين ذاك تأثرًا بهذا الشعر بكاءً شديدًا حتى ظنت لا تسكت[5].

التعليق على الأبيات

تعليق أبي بكر على الأبيات:

وأبو بكر وعائشة يشتركان في التعليق على ما يقال أمامهما من الأبيات، فأبو بكر يضيف كل معنى جميل يسمعه من الشعر إلى رسول الله ﷺ، فمن ذلك أن أبا بكر سمع يومًا قول لبيد في أخيه أربد[6]:

لَعَمْرِي إذا كانَ المُخبِّرُ صادِقًا
لقَدْ رُزِئَتْ في حادِثِ الدَّهْرِ جَعْفَرُ
أَخًا لي، أَمَّا كُلَّ شَيْءٍ سَأَلْتَهُ
فيُعْطِي، وأَمّا كُلَّ ذَنْبٍ فَيَغْفِرُ

فقال: ذلك رسول الله ﷺ[7].

ومن ذلك «أنشد منشد أبا بكر قول زهير في هرم بن سنان»[8]:

أنْ نِعمَ معترَكُ الجياعِ إذا
خَبَّ السَّفِيرُ وسابئُ الخَمْرِ[9]
ولنعمَ حشوُ الدرعِ أنتَ إذا
دُعيتْ نَزالِ ولُجّ في الذُّعرِ
ومُرَهَّقُ النيران يُحْمَدُ في الـ
ـلأْواءِ غيرُ مُلعَّن القِدْرِ[10]

وجعل أبو بكر -رحمه الله- يقول عند كل بيت: ذاك رسول الله ﷺ، حتى أنشده:

والسِّتْرُ دونَ الفاحشاتِ وما
يلقاكَ دونَ الخيرِ من سِتْرِ

(5) انظر: الطبري، تاريخ الأمم والملوك، 5/ 520-521.
(6) لبيد، الديوان «بشرح الطوسي»، ص 88.
(7) انظر: المبرد، الفاضل، ص 14. الأصبهاني، الأغاني، 17/ 21.
(8) زهير، شعره «صنعة الأعلم الشنتمري»، ص 116،118،119.
(9) معترك الجياع: مكان اجتماعهم. وخب السفير: اشتد الزمن. وسابئ الخمر: مشتريها.
(10) مرهق النيران: تغشى داره. واللأواء: الجهد وشدة الزمان. وغير ملعن القدر: أي هو محمود القدر لمشاركة الضيف والمحتاج فيها.

فقال: هكذا كان رسول الله ﷺ، ثم قال: «أشعر شعرائكم زهير»[1].

ولما وصفته ابنته عائشة وهو يعاني من سكرات الموت ببيت أبي طالب[2]:

وأبيضَ يُستَسقى الغمامُ بوَجهه
رَبيعُ اليتامى عصْمةٌ لِلأرامِلِ

رد عليها موجهًا: «ذلك رسول الله ﷺ»[3].

فحبه الكبير للرسول ﷺ يجعله دائم التفكير فيه ويربطه بالمعاني السامية التي ترد في الشعر، وليس أي شعر، وإنما الشعر الذي أضفت عليه الصياغة الرائعة والنظم الحسن ماء ورونقًا، فبرزت فيه المعاني بأجل صورها وأرقاها.

وكان يفهم ما يرمي إليه الشعر من معان ويعلق عليها فقد «صلى أبو بكر -رحمة الله عليه- صلاة الصبح يومًا، فلما انفتل قام متمم بن نويرة في آخر الناس.. فاتكأ على قوسه ثم قال:

نعمَ القتيلُ إذا الرياحُ تناوحَتْ
خلفَ البيوتِ قتلتَ يا ابنَ الأزْوَرِ
أدعَوْتَهُ بالله ثمّ غَدَرْتَه
لَو هو دَعَاكَ بذِمَّةٍ لم يَغْدِرِ

وأومأ إلى أبي بكر، فقال أبو بكر رضي الله عنه: والله ما دعوته ولا غدرت به»[4].

فهنا لم يكن الاتهام موجهًا مباشرة لأبي بكر، فهو موجه في الشعر لابن الأزور وهو (ضرار ابن الأزور الأسدي) لكن أبو بكر الخبير بالشعر الفاهم لأسراره وأساليبه عرف التلميح الذي فيه فرد عليه بما يناسب المقام.

تعليق عائشة على الأبيات

وكتب التراث تحتفظ لنا بعدد أكبر من المواقف التي علقت فيها عائشة -رضي الله عنها- على ما يقال أمامها من الأبيات، وقد تربطه بقائله موجهة أو لائمة بحيث تستغل الشعر ليكون مدرسة للأخلاق، فمن ذلك أن ابن أبي عتيق (وهو عبدالله بن محمد بن عبدالرحمن بن أبي بكر الصديق) دخل على عمته عائشة -رضي الله عنها- وأنشد عندها[5]:

وَمُقيّرٍ جَحَلٍ جَرَرتَ بِرِجلِه
بَعَدَ الهَدوِّ له قوائمُ أربعُ[6]

فاطرَبْ زمانَ اللهوِ في زمنِ الصِّبا
وانزعْ إذا قالوا أبَى لا يَنزِعُ

فَليأتيَنَّ عليكَ يوما مَرّة
يُبكَى عليكَ مُقَنَّعا لا تَسْمَعُ

فقالت له موجهة في رفق: «يا بني، فاتق ذلك اليوم»[7].

ويومًا دخل عليها حسان بن ثابت وأنشدها قصيدته التي يمدحها فيها ويعتذر إليها من حادثة الإفك، فلما وصل إلى قوله[8]:

حَصَانٌ رَزَانٌ ما تُزَنُّ بِريبةٍ
وتصبحُ غَرْثَى من لحومِ الغوافلِ

قالت عائشة -رضي الله عنها- معاتبة ومذكرة بما سبق منه: «ولكنك لست كذلك»[9].

وكانت عائشة -رضي الله عنها- تترحم على لبيد كلما أُنشدت قوله[10]:

قضَّى اللُّبَانةَ لا أبا لكَ واذْهَبِ
والحقْ بأُسَرَتِكَ الكرامِ الغُيَّبِ

ذهبَ الذين يُعاشُ في أكْنَافِهِم
وبقيتُ في خَلْفٍ كَجِلْدِ الأَجْرَبِ

وتعقبه بقولها «فكيف لو رأى لبيد خَلْفنا هذا؟»[11] أو «رحم الله لبيدًا! فكيف لو رأى زماننا هذا؟»[12].

استنشاد الرسول ﷺ لهما الشعر

استنشاد الرسول ﷺ لأبي بكر:

ومما يجمعهما معًا في علاقتهما بالشعر استنشاد الرسول ﷺ لهما الشعر واستنشاده لأبي بكر أكثر؛ فمن ذلك أن الرسول ﷺ قال لكعب بن زهير: «ما نسي ربك -وما كان ربك نسيًّا- شعرا قلته»، قال: وما هو يا رسول الله؟ قال: أنشده يا أبا بكر. فأنشده أبو بكر رضي الله عنه[13]:

(1) المبرد، الفاضل، ص 14.
(2) البخاري، الجامع الصحيح، 2/ 33-34.
(3) ابن حنبل، المسند، 1/ 7.
(4) المبرد، التعازي والمراثي، ص 20.
(5) الأبيات لبلعاء بن قيس الكناني. انظر: الجاحظ، البرصان والعرجان والعميان والحولان، ص 33.
(6) مقير: مطلي بالقار يريد الزق. وجحل: ضخم. وقوائم أربع: يريد أطراف الزق.
(7) انظر: ابن عبد ربه، العقد الفريد، 7/ 18.
(8) حسان، الديوان، ص 228.
(9) النووي، صحيح مسلم بشرح النووي، 18/ 46.
(10) لبيد، الديوان، ص 55.
(11) أبو زيد القرشي، جمهرة أشعار العرب، 1/ 204.
(12) الذهبي، سير أعلام النبلاء، 2/ 197.
(13) كعب، الديوان، ص 28.

زَعَمَتْ سَخِينَةُ أنْ سَتَغْلِبُ رَبَّها
وَلَيُغْلَبَنَّ مُغَالِبُ الغَلابِ[1]

ومن ذلك: لما دخل رسول الله ﷺ عام الفتح وأتى النساء يلطمن وجوه الخيل، فتبسم إلى أبي بكر وقال: يا أبا بكر كيف قال حسان؟ فأنشده أبو بكر[2]:

عَدِمتُ بُنيتي إن لمْ تَرَوهَا
تثيرُ النَّقعَ مَوْعِدُهَا كَدَاءُ
يُنَازِعنَ الأسنَّةَ مُسْرَجَاتٍ
يُلَطِّمُهُنَّ بالخُمُرِ النساءُ

فقال الرسول ﷺ: «ادخلوها حيث قال حسان»[3].

ووقف الرسول ﷺ على قتلى بدر ومعه أبو بكر ﷺ فقال: «يُفَلِّقْنَ» فقال أبو بكر[4]:

يُفَلِّقْنَ هَامًا من رجالٍ أحِبَّةٍ
إلينا وهم كانوا أعقَّ وأظلَمَا

فقال رسول الله ﷺ: «يُفَلِّقْنَ» يستعيد أبا بكر، فقال البيت مرة أو مرتين[5].

ومما يلحق بهذا أن رسول الله ﷺ كان مع أبي بكر عند باب بني شيبة فمر رجل وهو يقول:

يَا أيُّها الرَّجُلُ المُحَوِّلُ رَحْلَهُ
ألا نَزَلتَ بِآلِ عبدالدَّارِ
هَبِلَتْكَ أُمُّكَ لو نزلتَ برحْلِهم
مَنَعُوكَ من عُدْمٍ ومن إقْتَارِ

فالتفت رسول الله ﷺ إلى أبي بكر فقال: «أهكذا قال الشاعر؟» قال: «لا والذي بعثك بالحق، لكنه قال[6]:

يَا أيُّها الرَّجُلُ المُحَوِّلُ رَحْلَه
ألا نَزَلتَ بِآلِ عبدِ مَنَافِ
هَبِلَتْكَ أُمُّكَ لو نزلتَ برحْلِهم
مَنَعُوكَ من عُدْمٍ ومن إقْتَارِ
الخَالِطِينَ فقيرَهم بغَنِيِّهم
حتى يعودَ فقيرُهم كالكافي
ويُكَلِّلونَ جِفَانَهم بِسَديفِهم
حتى تغيبَ الشمسُ في الرَّجَّافِ[7]

منهم عليٌّ والنبيُّ محمدٌ
القائلان هَلُمَّ للأضيافِ

فتبسم رسول الله ﷺ وقال: هكذا سمعت الرواة ينشدونه[8].

«وقال يومًا لأبي بكر رحمة الله عليه: كيف قال العباس بن مرداس: أتجعل نهبي ونهب العبيد بين الأقرع وعيينة؟ فقال أبو بكر: يا رسول الله، بين عيينة والأقرع، قال: أليس هما سواء»[9]. يريد قوله[10]:

أَتَجْعَلُ نَهْبِي وَنَهْبَ الْعُبَيْدِ
بَيْنَ عُيَيْنَةَ وَالأَقْرَعِ

ويلاحظ في المثالين الأولين ذكاء أبي بكر إذ عرف الشعر الذي يرمي إليه الرسول ﷺ دون أن يذكر منه الرسول ﷺ كلمة واحدة حيث اعتمد في ذلك على ملابسات الموقف وحفظه وفهمه لشعر الشاعر.

أما في المثال الثالث فقد دلت كلمة واحدة قالها الرسول ﷺ مع ملابسات الموقف على ما يريده من الشعر مما جعل الرسول ﷺ يعجب بفطنة أبي بكر ويردد عليه الكلمة طالبًا ترديد الأبيات.

أما في المثال الرابع فقد فطن إلى موطن احتجاج الرسول ﷺ على هذا الشعر، فسارع يقوله بالطريقة التي ترضي رسول الله ﷺ، وفعلاً حسه النقدي كان بمكانه؛ فكان نتيجة ذلك أن تبسم رسول الله ﷺ وقال مؤيدا لأبي بكر: «هكذا سمعت الرواة ينشدونه». ونلاحظ ذكاء أبي بكر الصديق حيث أطال في إتمام هذه الأبيات لأن فيها مدحًا للرسول وآله. وقد يكون ذلك لإثبات القافية الفائية للأبيات والتي أرضت رسول الله ﷺ.

استنشاد الرسول ﷺ لعائشة:

أما عائشة -رضي الله عنها- فقد روت رضي الله عنها: «كان رسول الله ﷺ كثيرًا ما يقول لي: يا عائشة، ما فعلت أبياتك؟ فأقول: وأي أبياتي تريد يا رسول الله فإنها كثيرة؟ فيقول: في الشكر. فأقول: نعم، بأبي أنت وأمي. قال الشاعر[11]:

(1) الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص 17.
(2) حسان، الديوان، ص 73 (مع اختلاف في الرواية).
(3) ابن كثير، البداية والنهاية، 6/ 550.
(4) الشعر للحصين بن الحمام. انظر: الضبي، المفضليات، ص 65.
(5) انظر: ابن أبي الدنيا، الأشراف، ص 154-155.
(6) الشعر لمطرود بن كعب الخزاعي. انظر: المرزباني، معجم الشعراء، ص 375.
(7) الرجاف: البحر.
(8) انظر: القالي، الأمالي، 1/ 241-242. وانظر: الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص 21.
(9) المبرد، الفاضل، ص 9.
(10) النووي، صحيح مسلم بشرح النووي، 7/ 166.
(11) ذكر أبو الفرج الأصفهاني (الأغاني 3/ 108-109) أن الشعر لغريض اليهودي وقيل إنه لابنه سعية بن غريض وقيل إنه لزيد بن عمرو بن نفيل وقيل إنه لورقة بن نوفل

ادفَعْ ضَعِيفَكَ لا يَحُرْ بِكَ ضَعْفُهُ
يَوْمًا فَتُدْرِكَهُ العَوَاقِبُ قَدْ نَمَى
يَجْزِيكَ أَوْ يُثْنِي عَلَيْكَ وَإِنَّ مَنْ
أثنى عَلَيكَ بما فَعَلتَ كمن جَزى
إنَّ الكريمَ إذا أردتَ وصالَهُ
لم تُلْفِ رثا حبَله واهي القُوى»

قالت: فيقول: «يا عائشة إذا حشر الله الخلائق يوم القيامة قال لعبد من عباده اصطنع إليه عبد من عباده معروفًا: هل شكرته؟ فيقول: أي رب، علمت أن ذلك منك فشكرتك عليه، فيقول: لم تشكرني إذا لم تشكر من أجريت ذلك على يديه»[1].

ففي هذا دليل على حسن اختيار عائشة للأبيات التي تتمثل بها وسمو معانيها وجمال صياغتها مما يدفع الرسول ﷺ -وهو من هو في البلاغة- إلى الإعجاب بها، حتى إنه يطلب من عائشة كثيرًا أن تعيد هذه الأبيات على مسامعه لأنه لا يقول الشعر ولا ينبغي له. ونجده ﷺ يقف على المعاني الإسلامية فيها مؤيدًا إياها بحديث نبوي شريف. وفي هذا الخبر أيضًا دليل على كثرة استشهاد عائشة للرسول ﷺ فهي تقول «فإنها كثيرة».

الملاحظات النقدية

ملاحظات أبي بكر النقدية:

ولأبي بكر وعائشة بعض الملاحظات النقدية، والملاحظات النقدية لا تأتي إلا من التأمل فيما يقال من الشعر والتفكر في معانيه ومبانيه.

ومما أثر عن أبي بكر ﷺ أنه كان يقدم النابغة ويقول «هو أحسنهم شعرًا وأعذبهم بحرًا وأبعدهم قعرًا»[2].

فهو يفضل النابغة وهو شاعر مفضل فعلاً عند كثير من النقاد المتخصصين بالأدب، وهو لا يكتفي بتفضيله، بل يورد في الحكم السبب الذي دفعه لهذا التقديم، وإن كان هذا التعليل يلفه الغموض، إلا أن هذه هي الطريقة المثلى لنقد الشعر في ذلك العصر.

وأبو بكر في موضع آخر يقدم زهير بن أبي سلمى بعد أن أنشد أبياتًا من شعره إذ قال: «أشعر شعرائكم زهير»[3]. دون أن يعلل لتقديمه؛ كأنما أغنته أبيات زهير التي بنى عليها هذا الحكم عن التعليل. فأبو بكر هنا قدم شاعرين من شعراء الجاهلية، وهما من الشعراء المقدمين فعلاً مما يدل على رقي ذوقه النقدي وتمكنه من الحكم على الشعراء، وإعجاب المرء بشاعرين أو أكثر لا يعد عيبًا في حسه النقدي.

ونجد روح النقد واضحة عند عائشة -رضي الله عنها- إذ تتحدث عن بعض الشعراء معطية أحكامًا على أشعارهم؛ فعلى طريقة النقد الأدبي القديم نجد عائشة تميل إلى اختيار بيت أو أبيات من شعر الشاعر الذي تحفظ معظم ديوانه، وتعطي هذه الأبيات التميز على ما سواها من الشعر دون أن تعلل لمواطن الجمال ونقاط القوة التي أكسبت هذا البيت التفوق على ما عداه. يتضح ذلك في تفضيلها بيت حسان بن ثابت الذي جعلته سببًا كافيًا لإسكات ذاميه عندها عندما قالت إنه الذي قال[4]:

فَإنَّ أبي ووالِدَهُ وعِرضي
لِعِرضِ محمدٍ منكم وقاءُ[5]

وفعلاً الجزء الإسلامي من قصيدة فتح مكة من أروع ما جادت به قريحة حسان.

وكذلك هي مع لبيد حيث قالت: رحم الله لبيدًا ما كان أشعره في قوله[6]:

ذهبَ الذين يُعاشُ في أَكْنَافِهِم
وبقيتُ في خَلْفٍ كَجِلْدِ الأَجْرَبِ
لا ينفعون ولا يُرجَّى خيرُهم
ويعابُ قائلُهم وإن لم يشغب[7]

فهي تعجب بشاعرية لبيد التي فتقت ذهنه فأخرج هذا المعنى البديع. وعائشة -رضي الله عنها- هنا تسير على طريقة النقد الأدبي القديم فتعمد إلى اختيار بيت أو أبيات من شعر الشاعر الذي تحفظ معظم ديوانه، وتعطي هذه الأبيات التميز على ما سواها من الشعر دون أن تعلل لمواطن الجمال ونقاط القوة التي أكسبت هذا البيت التفوق على ما عداه.

وقيل إنه لزهير بن جناب وقيل إنه لعامر بن المجنون الجرمي ثم قال، «والصحيح أنه لغريض أو لابنه». ويؤيد هذا أن أبا تمام أورد الشعر معزوا إلى سعية بن غريض اليهودي. انظر: أبو تمام، الوحشيات، ص 110.

(1) الطبراني، المعجم الصغير، 1/ 163. وانظر: الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص 19-20.

(2) ابن رشيق، العمدة، 1/ 9.

(3) المبرد، الفاضل، ص 14.

(4) حسان، الديوان، ص 76.

(5) انظر: البخاري، الجامع الصحيح، 5/ 56.

(6) لبيد، الديوان، ص 55.

(7) أبو زيد القرشي، جمهرة أشعار العرب، 1/ 204.

ملاحظات عائشة النقدية:

ولعائشة -رضي الله عنها- بعض الملاحظات النقدية المهمة؛ مثل قولها «علموا أولادكم الشعر تعذب ألسنتهم»[1]، فبه يحلو الجواب ويحسن النطق. وعائشة -رضي الله عنها- لعلمها بدور الشعر في تربية النشء وعذوبة اللسان تدعو لتعليمه للأبناء منذ صغرهم ليتعود الطفل على ألفاظه الفصيحة ومعانيه النبيلة فيستقيم لسانه منذ الصغر، ولدينا في عائشة -رضي الله عنها- صاحبة هذا القول أكبر دليل، فعائشة -نفسها- التي وعت الشعر منذ الصغر وحفظته في طفولتها قد بزت أقرانها وغير أقرانها من الرجال والنساء في الفصاحة والبيان حتى قال عنها الأحنف بن قيس: «سمعت خطبة أبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب والخلفاء كلهم هلم جرا إلى يومي هذا، فما سمعت الكلام من فم مخلوق أفخم ولا أحسن منه من فم عائشة»[2]. وقال عنها معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما: «ما سمعت قط أبلغ من عائشة ليس رسول الله ﷺ»[3].

ولعائشة رأي في موروث الشعر العربي حيث قالت: «الشعر منه حسن ومنه قبيح، خذ بالحسن ودع القبيح»[4]، فهي توصي أن يفرق بين نوعين من الشعر النوع الأول هو الشعر الحسن والثاني القبيح؛ فما حسن من الشعر يؤخذ به وبه تحلو الألسن وترقى الطباع، أما النوع الآخر فيترك غير مأسوف عليه.

وقد يكون الهجاء من النوع الثاني من الشعر الذي حذرت منه عائشة رضي الله عنها، فهي تفسر قول الرسول ﷺ: «لأن يمتلئ جوف رجل قيحًا يريه خير من أن يمتلئ شعرًا»[5]. قالت: «يعني الهجاء منه»[6]، فهي بهذا تعطي فسحة لأهل الشعر ورخصة لقائليه وسامعيه ما دام موافقًا لتعاليم الإسلام ليس فيه هجاء ولا قذف.

ما انفرد به كل منهما

نظم أبي بكر للشعر:

ومما انفرد به أبو بكر الصديق عن عائشة في علاقتها بالشعر ما قيل عن نظمه للشعر وما دار حول هذا الأمر من خلاف؛ فقد كثر الحديث عن شاعريته وتضاربت الآراء حولها.

فمن حجج المثبتين ما يروى عن سعيد بن المسيب من أنه قال: «كان أبو بكر شاعرًا وعمر شاعرًا وعلي أشعر الثلاثة». وإلى ذلك مال المبرد حيث قال: «وكان أبو بكر الصديق -رحمه الله- فيما يروى شاعرًا وعمر شاعرًا وعلي أشعر الثلاثة». ومثل هذا ما رواه أبو زيد القرشي عن المفضل من قوله: «لم يبق من أصحاب رسول الله ﷺ إلا وقد قال الشعر وتمثل به» ثم أورد مقطوعة لأبي بكر يرثي بها النبي ﷺ. وقد يشهد لهؤلاء ما يصيبه المرء في المصادر من قصائد ومقطعات وأبيات مفردة منسوبة إلى أبي بكر الصديق يأتي على رأسها السيرة النبوية لابن إسحاق. وجاء بعده ابن سعد فساق بإسناده مقطعات ثلاثًا عزاهن إلى أبي بكر. وبالبحث في الكتب التي تلتها يزداد ما يعزى إلى أبي بكر من الشعر حتى نصل إلى ديوان مفرد له.

ومن لطائف الاتفاقات أن يكون لعائشة دور في هذا الموضوع؛ بل كان لها إذا أنصف الإنسان فضل البت فيه، فقد ورد عنها بسند على شرط البخاري أنها قالت: «والله ما قال أبو بكر بيت شعر في الجاهلية ولا الإسلام». وهو قول قاطع لا يقوم له ما روي عن سعيد بن المسيب بلا إسناد، ولا ما أورده ابن سعد بأسانيد منقطعة، أو ما ساقه ابن إسحاق دون أن يرفعه إلى شيخ أو راوية. ويشهد لذلك ما صدر به ابن هشام راوي سيرة ابن إسحاق قصيدة نسبها إلى أبي بكر فقال ابن هشام: «وأكثر أهل العلم بالشعر ينكر هذه القصيدة لأبي بكر رضي الله عنه»[7]. أما الديوان فيقوم على مخطوطة حديثة يغلب على الظن أنها من جمع بعض المتأدبين المتأخرين حشد فيها كل ما وجده منسوبًا إلى أبي بكر من الشعر، وقد اجتهدت في البحث فلم أر من ذكر أن أحدًا صنع لأبي بكر ديوانًا، والله أعلم.

هذه شهادة النقد الخارجي تؤيد ما ذهبت إليه عائشة من إنكارها أن أباها قال الشعر، والنقد الداخلي شاهد آخر على هذا، فالناظر في هذه القصائد يجدها متشابهة من ناحية النظم واللغة والأسلوب، جارية على نمط لا يرقى لمستوى رجل مثل أبي بكر عرف عنه علمه الواسع بالشعر

(1) ابن عبد ربه، العقد الفريد، 7/ 6.
(2) الذهبي، سير أعلام النبلاء، 2/ 191.
(3) المصدر السابق.
(4) البخاري، الأدب المفرد، ص 185.
(5) البخاري، الأدب المفرد، ص 185.
(6) انظر: المبرد، الفاضل، ص 13.
(7) ابن هشام، السيرة النبوية، 2/ 277.

وكل ما يمس الشعر من علوم.

على أن هذا لا ينفي أن يكون جرى على لسان أبي بكر البيت والبيتان في هذه المناسبة أو تلك كقوله مداعبًا علي بن أبي طالب حين خرجا من صلاة العصر بعد وفاة الرسول ﷺ بليال فمرا على الحسن بن علي فاحتمله أبو بكر على رقبته وهو يقول:

وا بأبي شبه النبي ليس شبيها بعلي[1]

ولا شك أن البيت والبيتين لا يجعلان المرء شاعرًا ولا يسوغان أن يقال عنه إنه كان يقول الشعر.

أما عائشة -رضي الله عنها- فلم يتطرق المؤلفون للحديث عن قولها الشعر لا سلبًا ولا إيجابًا -فيما اطلعت عليه من مصادر- غير أبيات قالتها لما بلغها أن الأحنف بن قيس لامها حين خرجت إلى البصرة في أبيات قال فيها:

فلو كانتِ الأكْنانُ دونكِ لم يجد
عليك مقالاً ذو أَذَاةٍ يقولُها
وَقَفْتِ بِمُسْتنِّ السُّيولِ وقَلَّ مَنْ
يثْوَى بها إلا علاهُ بَليلُها
مخضتِ سِقائي غَدْرةً وملامةً
وكلتاهما كادت يَغولُك غولُها

فلما بلغتها مقالته قالت: «لقد استفرغ حلم الأحنف هجاؤه إياي، ألي يستجم مثابة سفهه؟! إلى الله أشكو عقوق أبنائي» ثم أنشأت تقول:

بُنَيَّ اتّعظ إن المواعظَ سهلةٌ
ويوشك أن تختارَ وَعْرًا سبيلُها
فلا تنسين في الله حَقَّ أمومتي
فإنك أولى الناس ألا تقولها
ولا تنطقن في أمة لي بالخنى
حنيفية قد كان بَعْلِي رَسُولُها

فاعتذر إليها الأحنف[2].

رواية عائشة للشعر:

والموضوع الذي لفت الأنظار في عائشة -رضي الله عنها- هو ضخامة محفوظها من الشعر إذ نصت على شعراء بعينهم تحفظ دواوينهم كاملة، وشعراء تحفظ كثيرًا من شعرهم، ومما يدل على سعة روايتها للشعر ما أسند الزبير بن بكار عن أبي الزناد قال: «ما رأيت أروى لشعر من عروة، فقيل له: ما أرواك، فقال: ما روايتي في رواية عائشة، ما كان ينزل بها شيء إلا أنشدت فيه شعرا»[3]. وهذا يدل على ضخامة محفوظاتها من الشعر بوجه عام التي تمكنها من الاستشهاد على كل حادث، ومما يؤكد ضخامة محفوظاتها من الشعر ما أورده ابن رشيق «وكانت عائشة -رضي الله عنها- كثيرة الرواية للشعر»[4].

وعائشة -رضي الله عنها- نفسها تذكر روايتها للشعر فتقول: «ولقد رويت من شعر كعب بن مالك أشعارًا؛ منها القصيدة فيها أربعون بيتًا ودون ذلك»[5]. وقالت عن روايتها لشعر لبيد بن ربيعة: «إني لأروي ألف بيت له، وإنه أقل ما أروي لغيره»[6]. وقال عنها ابن رشيق: «يقال إنها كانت تروي جميع شعر لبيد»[7].

فعائشة -رضي الله عنها- تحفظ شعر شعراء معينين رغبت في شعرهم فحرصت على تتبعه؛ مثل كعب بن مالك ولبيد بن ربيعة، بل إن القول الأخير يحمل في ثناياه حفظ ما وصلها من شعر كعب بن مالك، وقصائده مهما طالت. فعائشة -رضي الله عنها- في علاقتها بالشعر حريصة على حفظ شعر شعراء معينين بأسمائهم، ومن ثم روايتها، وإن كان التاريخ لم يحفظ لنا من أسماء هؤلاء الشعراء إلا لبيد بن ربيعة وكعب بن مالك، فالغالب أن ما ضاع من أخبار عائشة -رضي الله عنها- مع الشعر يحمل في ثناياه أسماء غير شاعر غير هذين شرفتهم عائشة -رضي الله عنها- بحفظ أشعارهم وروايتها.

وقد تكون عائشة -رضي الله عنها- لطول ممارستها للشعر وفهمها لأسراره وجدت في شعر هذين الشاعرين من الصفات الفنية والأسلوبية ما يوافق ميزانها النقدي وحسها الشعري فطفقت تحفظ شعرهما.

وقد يعترض معترض هنا فيقول: إن عائشة -رضي الله عنها- إنما اختارت هذين الشاعرين لأنهما مسلمان (مخضرمان) سكت أولهما عن قول الشعر بعد إسلامه قناعة بالقرآن[8]، وسخّر الآخر لسانه وسنانه للدفاع عن الدعوة الإسلامية

(1) انظر: البخاري، الجامع الصحيح، 5/ 33.
(2) انظر: الزمخشري، الفائق، 2/ 162.
(3) العسقلاني، الإصابة، 13/ 42.
(4) ابن رشيق، العمدة، 1/ 30.
(5) البخاري، الأدب المفرد، ص 185.
(6) ابن عبد ربه، العقد الفريد، 6/ 109.
(7) ابن رشيق، العمدة، 1/ 30.
(8) انظر: الأصفهاني، الأغاني، 15/ 297-298.

وصاحبها عليه أفضل الصلاة والتسليم.

ولكن الواقع أن عائشة -رضي الله عنها- قد عاصرت عددًا كبيرًا من الشعراء المسلمين الذين ذبوا عن حياض الإسلام غير هذين، ولكن عائشة -رضي الله عنها- اختارتهما فيمن اختارت أنها وجدت شعرهما مناسبًا لميولها الفنية وحسها النقدي.

ولكن هل اقتصر حفظ عائشة -رضي الله عنها- للشعر على تتبع شعراء معينين؟

إن الجواب يوجد متفرقًا في كتب التراث؛ من مثل قول ابن الزبير: «ربما روت عائشة القصيدة ستين بيتًا والمائة بيت»[1]. وقال عنها في رواية أخرى: «ربما روت عائشة القصيدة ستين بيتًا وأكثر»[2]. وقال عنها ابن رشيق مبينًا سعة روايتها للشعر: «كانت عائشة -رضي الله عنها- كثيرة الرواية للشعر»[3].

فهذه الأقوال تدل على أن عائشة -رضي الله عنها- وإن تتبعت شعر بعض الشعراء بالحفظ، فهي تحفظ أيضًا قصائد مفرقة لشعراء آخرين، ولا يمنعها طول القصيدة من احتوائها عن ظهر قلب. وواضح من تتبع بقية أخبارها مع الشعر مما سبق دراسته حفظها لأبيات ومقطعات لأعداد كبيرة من الشعراء وراء هؤلاء تحفظ لهم أبياتًا أو مقطعات تستشهد بها وتعبر بها عما يدور في خلدها.

وقد يكون ما خدم عائشة في عالم الشعر ما عرفت به من ذاكرة قوية؛ يسرت لها أسباب حفظ القصائد الطوال، يدل على ذلك ما أثر عنها من أحاديث غزيرة روتها عن الرسول ﷺ، والذاكرة جزء لا يتجزأ؛ فمن يحفظ الحديث سريعًا ويردده عن ظهر قلب، فحفظ الشعر سهل عليه؛ لما يقيده من وزن وقافية. ثم لما استقرت هذه الزهرة اليانعة وقد تفتحت أكمامها في بيت النبوة، تعهد الرسول ﷺ تلك الغرسة بكريم رعايته وطيب عنايته، فكان يشجع فيها تلك الميول الأدبية، فيسترجع محفوظاتها الشعرية بسؤالها عن بعض ما تعرفه من الشعر، وإبداء إعجابه الجم ببعض ما تنتقيه من أبيات، مما يشعر بأن عائشة تحرص على أن تستزيد من معرفة أشعار العرب كي يجد عندها الرسول ﷺ لكل سؤال جوابًا، ولكي تتحفه باستمرار بأجمل الأبيات وأبدع الأشعار.

(1) ابن سعد، الطبقات الكبرى، 8/ 73.
(2) المصدر السابق.
(3) ابن رشيق، العمدة، 1/ 30.

الخاتمة

فهذه نظرة متأنية عن الشعر في حياة أبي بكر وعائشة رضي الله عنهما، وأول ما يلفت النظر لهما هو تمثلهما بالشعر على ما يواجههما من مواقف، ولا يتركان هذا التمثل حتى في أعظم الساعات شدة كالمرض والموت. وهما يتأثران بالشعر، ويدفعهما لاتخاذ مواقف معينة. ويشتركان في التعليق على ما يقال أمامهما من أبيات، ومن اللافت إضافة أبي بكر كل معنى جميل يسمعه من الشعر إلى الرسول ﷺ، أما عائشة فهي تربطه بقائله موجهة أو لائمة بحيث تستغل الشعر ليكون مدرسة للأخلاق. ومما يجمعهما معًا استنشاد الرسول ﷺ لهما الشعر واستنشاده لأبي بكر أكثر. ولهما طائفة من الملاحظات النقدية، التي لا تأتي إلا من التأمل في الشعر والتفكر في معانيه ومبانيه. ومما انفرد به أبو بكر عن عائشة في علاقتهما بالشعر ما قيل عن نظمه للشعر، وما دار حول هذا الأمر من خلاف. والموضوع الذي لفت الأنظار في عائشة ضخامة محفوظها من الشعر؛ إذ نصت على شعراء بعينهم تحفظ دواوينهم كاملة علاوة على شعراء تحفظ كثيرًا من شعرهم؛ ولا يتعجب من مثل هذا التقارب، فقد تلقت عائشة -رضي الله عنها- الشعر من والدها أبي بكر ﷺ؛ لذا كان لا بد أن نرى تقاربًا في ثقافتهما الشعرية وأسلوب توظيفهما للشعر.

المراجع

ابن أبي الدنيا، أبو بكر عبدالله بن محمد. تحقيق: قصاب، وليد. 1413هـ/ 1993م. الأشراف. الطبعة الأولى، دار الثقافة، الدوحة، قطر.

ابن الأبرص، عبيد. 1399هـ/ 1979م. الديوان. بدون رقم الطبعة، دار بيروت، بيروت، لبنان.

ابن بكار، الزبير. تحقيق: العاني، سامي مكي. د.ت. الأخبار الموفقيات. بدون رقم الطبعة، الدار الوطنية للتوزيع والإعلان، بغداد، العراق.

ابن حنبل، أحمد. تحقيق: الأرناؤوط، شعيب. 1420هـ/ 1999م. المسند. الطبعة الثانية، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان.

ابن رشيق، الحسن القيرواني. تحقيق: قرقزان، محمد. 1988م. العمدة في محاسن الشعر وآدابه. بدون رقم الطبعة، دار المعرفة، بيروت، لبنان.

ابن سعد، محمد. 1377هـ/ 1957م. الطبقات الكبرى. الطبعة الأولى، دار صادر ودار بيروت، بيروت، لبنان.

ابن عبد ربه، شهاب الدين أحمد الأندلسي. تحقيق: العريان، محمد سعيد. د.ت. العقد الفريد. بدون رقم الطبعة، دار الفكر، بيروت، لبنان.

ابن عساكر، أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله بن عبد الله الشافعي. تحقيق: العمروي، محب الدين أبو سعيد عمر بن غرامة. 1415هـ/ 1995م. تاريخ مدينة دمشق وذكر فضلها وتسمية من حلها من الأماثل أو اجتاز بنواحيها من وارديها وأهلها. الطبعة الأولى، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان.

ابن قتيبة، أبو محمد عبد اللهَّ بن مسلم الدينوري. د.ت. عيون الأخبار. بدون رقم الطبعة، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان.

ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي. تحقيق: التركي، عبدالله بن عبدالمحسن. 1424هـ/ 2003م. البداية والنهاية. الطبعة الثانية، دار عالم الكتب، الرياض، المملكة العربية السعودية.

ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم الأفريقي المصري. د.ت. لسان العرب. بدون رقم الطبعة، دار صادر، بيروت، لبنان.

ابن هشام، أبو محمد عبد الملك بن أيوب الحميري المعافري. تحقيق: السقا، مصطفى. 1355هـ/ 1936م. السيرة النبوية. بدون رقم الطبعة، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، مصر.

أبو تمام، حبيب بن أوس الطائي. تحقيق: الميمني، عبدالعزيز. زاد في حواشيه: شاكر، محمود محمد. 1996م. الوحشيات. دار المعارف، القاهرة، مصر.

أبو زيد القرشي، محمد بن أبي الخطاب. تحقيق: الهاشمي، محمد علي. 1419هـ/ 1999م. جمهرة أشعار العرب. الطبعة الثالثة، دار القلم، دمشق، سوريا.

أبو نعيم، أحمد بن عبد الله الأصبهاني. 1409هـ/ 1988م. حلية الأولياء وطبقات الأصفياء. الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

الأصبهاني، محمد. د.ت. مقاتل الطالبيين. دار الباز للنشر والتوزيع، بيروت، لبنان.

الأصفهاني، أبو الفرج محمد. تحقيق: فراج، عبدالستار أحمد. 1983م. الأغاني. دار الثقافة، بيروت، لبنان.

البخاري، أبو عبدالله محمد بن إسماعيل الجعفي. 1406هـ/ 1986م. الأدب المفرد. الطبعة الأولى، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، لبنان.

البخاري، أبو عبدالله محمد بن إسماعيل الجعفي. د.ت. الجامع الصحيح المختصر المعروف بـ «صحيح البخاري». بدون رقم الطبعة، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان.

البلاذري، أحمد. تحقيق: رضوان، رضوان محمد. 1398هـ/ 1978م. فتوح البلدان. بدون رقم الطبعة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

ثعلب، أحمد. شرحه وحققه: هارون، عبدالسلام. 1400هـ/ 1980م. مجالس ثعلب. الطبعة الرابعة، دار المعارف، القاهرة، مصر.

الجاحظ، عمرو. تحقيق: الخولي، محمد مرسي. 1392هـ/ 1972م. البرصان والعرجان والعميان والحولان. الطبعة الأولى، دار الاعتصام، القاهرة، مصر.

الجاحظ، عمرو. تحقيق: هارون، عبدالسلام. 1388هـ/ 1969م. الحيوان. الطبعة الثالثة، المجمع العلمي العربي الإسلامي، بيروت، لبنان.

الجرجاني، عبدالقاهر. تحقيق: شاكر، محمود محمد. د.ت. دلائل الإعجاز. بدون رقم الطبعة، مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر.

الحاتمي، محمد بن الحسن بن المظفر. تحقيق: الكتاني، جعفر. 1979م. حلية المحاضرة. بدون رقم الطبعة، دار الرشيد للنشر، بغداد، العراق.

حسان، بن ثابت. تحقيق: حسنين، سيد حنفي. مراجعة: الصيرفي، حسن كامل. 1974هـ. الديوان. بدون رقم الطبعة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، مصر.

الحصري، إبراهيم. تحقيق: عبدالحميد، محمد محيي الدين. فصله وشرحه: مبارك، زكي. د.ت. زهر الآداب. الطبعة الرابعة، دار الجيل، بيروت، لبنان.

الذهبي، أبو عبد الله شمس الدين محمد بن أحمد ابن عثمان. تحقيق: الصاغرجي، مأمون. إشراف: الأرناؤوط، شعيب. 1401هـ/ 1981م. سير أعلام النبلاء. الطبعة الثانية، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان.

الزركشي، محمد. تحقيق: الأفغاني، سعيد. 1400هـ/ 1980م. الإجابة لإيراد ما استدركته عائشة على الصحابة. الطبعة الثالثة، المكتب الإسلامي، بيروت، لبنان.

الزمخشري، محمود بن عمر. تحقيق: البجاوي، علي محمد، وإبراهيم، محمد أبو الفضل. د.ت. الفائق في غريب الحديث. الطبعة الثانية، دار المعرفة، لبنان.

زهير، ابن أبي سلمى. تحقيق: قباوة، فخر الدين. 1400هـ/ 1980م. شعره «صنعة الأعلم الشنتمري». الطبعة الثالثة، دار الآفاق الجديدة، بيروت، لبنان.

الضبي، المفضل. تحقيق: شاكر، أحمد محمد، وهارون، عبدالسلام. د.ت. المفضليات. الطبعة السابعة، دار المعارف، القاهرة، مصر.

الطائي، حاتم. دراسة وتحقيق: جمال، عادل سليمان. د.ت. الديوان «صنعة يحيى بن مدرك الطائي». بدون رقم الطبعة، مطبعة المدني، القاهرة، مصر.

الطبراني، أبو القاسم سليمان. 1403هـ/ 1983م. المعجم الصغير. بدون رقم الطبعة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد. د.ت. تاريخ الأمم والملوك. بدون رقم الطبعة، دار القاموس الحديث، بيروت، لبنان.

طفيل، الغنوي. تحقيق: فلاح، حسان. 1977م. الديوان «شرح الأصمعي». الطبعة الأولى، دار صادر، بيروت، لبنان.

العسقلاني، شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن علي بن حجر الشافعي. تحقيق: عبدالمقصود، عادل أحمد. 1415هـ/ 1995م. الإصابة في تمييز الصحابة. الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

القالي، أبو علي إسماعيل بن القاسم البغدادي. 1980م. الأمالي. بدون رقم الطبعة، دار الآفاق الجديدة، بيروت، لبنان.

كعب، ابن مالك. تحقيق: طراد، مجيد. 1997م. الديوان. الطبعة الأولى، دار صادر، بيروت، لبنان.

الكلاعي، أبو الربيع سليمان بن موسى. تحقيق: عز الدين، محمد كمال الدين. 1417هـ. الاكتفاء في مغازي رسول الله والثلاثة الخلفاء. الطبعة الأولى، عالم الكتب، بيروت، لبنان.

لبيد، ابن ربيعة. تحقيق: الحتي، حنا نصر. 1414هـ/ 1993م. الديوان «بشرح الطوسي». الطبعة الأولى، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان.

المبرّد، أبو العباس محمَّد بن يزيد. تحقيق: الديباجي، محمد. 1396هـ/ 1976م. التعازي والمراثي. بدون رقم الطبعة، مطبعة زيد بن ثابت، دمشق، سوريا.

المبرّد، أبو العباس محمَّد بن يزيد. تحقيق: الراجكوتي، عبد العزيز الميمنيّ. 1375هـ/ 1956م. الفاضل. بدون رقم الطبعة، دار الكتب العربية، القاهرة، مصر.

المدائني، علي. تحقيق: هارون، عبدالسلام. 1392هـ/ 1972م. المردفات من قريش «ضمن نوادر المخطوطات». بدون رقم الطبعة، مصطفى البابي الحلبي وأولاده، القاهرة، مصر.

المرزباني، محمد. تصحيح وتعليق: كرنكو، ف. 1402هـ/ 1982م. معجم الشعراء. بدون رقم الطبعة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

النووي، أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف. إشراف: قطب، حسن عباس. 1424هـ/ 2003م. المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج المسمى «صحيح مسلم بشرح النووي». الطبعة الأولى، دار عالم الكتب، الرياض، المملكة العربية السعودية.

Poetry between Abo Bakr and Aisha

Laila Mohammed Al Dekhail

Department of Arabic Language and its literature, College of Arts,
Princess Nourah bint Abdulrahman University
Riyadh, Saudi Arabia

ABSTRACT

These two great Islamic figures were the closest, and well known for scholars and public, persons to Prophet Mohammad (PBUH). They were particularly famous for their knowledge of religion, but that did not stop them from excelling in other fields. Thus, this work focused on unstudied area of their knowledge, poetry.

Aisha learned poetry from her father. Thus, it is expected to detect the similarity between their poetic culture and the way they utilized poetry. They quote poetry when facing different situations, even the toughest ones like sickness and death. Poetry does affect their attitudes and sometime drives them to take decisions.

They have always commented on the verses recited before. The Prophet (PBUH) used to ask them to recite poetry. Both of them commented on poetry due to their critical examining of its meanings and structure.

Abu Bakr differed from Aisha as there were reports that he had composed poetry such information is not conclusive.

What was special about Aisha is that she memorized an enormous amount of poetry. She mentioned some poets whom she memorized their full production alongside with several others whom she partially memorized their work.

Key Words: Hassan bin Thabit, Hatem Altaei, Loubaid bin Rabiaa, Tofail AlGhanawy, Zouhair bin Abi Salam.